

كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم علم الاجتماع - جامعة تلمسان -	التعصب المذهبي وعلاقته بالعنف لدى الشباب المتدين	أ فضيل حضري..
المخلص: لعل من أهم المشكلات التاريخية التي تعترض طريق العلاقات الإنسانية السوية والتي من أهم أهدافها التعارف وحسن الجوار، هي مشكلة التعصب. والتي خلقت عبر التاريخ الإنساني العديد من المآسي من حروب ومجازر وخلافات. فلتعصب بكل أنواعه دورا كبيرا في إيجاد ظاهرة العنف والتطرف، وعليه كان لزاما على الباحثين والمفكرين التوجه نحو كل ما يثير هذا السلوك اللاحضاري والذي يتفاقم كل مرة وينتشر في كل بقعة ويتمظهر بكم مظهر. فتتنوع أشكاله لمجالات عدة من « اللغة والجنس، أو القبيلة والحزب أو العقيدة والدين...» إلا أن الذي يهمننا في هذا البحث هو التعصب الذي ينشأ عن الرابطة الدينية أو المذهبية، أو بتعبير آخر «التعصب المذهبي». ومحاولة تسليط الضوء السوسيولوجي عليه حتى يأخذ حيزه كموضوع شائك.		

1- تعريف التعصب:

تأتي لفظة التعصب بمعنى الشدة فيقال لحم عصب: صلب شديد، وأتعصب أشد، والعصب: الطي الشديد، وعصب رأسه وعصبه تعصيباً: شده واسم ما شد به العصابة. ومنه قوله عز وجل «هذا يوم عصيب» أي شديد. ويأتي بمعنى: التجمع الإحاطة والنصرة ومنه قوله عصبه الرجل: بنوه وقرباته لأبيه. والعرب تسمى قرابات الرجل أطرافه ولما أحاطت به هذه القرابات وعصبت بنسبه سموا عصبه وكل شيء استدار بشيء فقد عصب به والعمائم يقال لها العصائب، ويقال عصب القوم بفلان أي استكفوا حوله والعصبة والعصابة جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين. والتعصب من العصبية والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين. والعصبي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم.¹

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي. فالتعصب هو التشدد وأخذ الأمر بشدة وعنفا وعدم قبول المخالف ورفضه والأنفة من أن يتبع غيره ولو كان على صواب.

وكذلك التعصب هو نصرة القوم أو الجماعة أو من يتفق معهم في اعتقادهم سواء كانوا محقين أم مبطلين، ظالمين أو مظلومين. فالتعصب ضد التسامح، والانغلاق ضد الانفتاح والتحجر ضد التفكير، ورفض الآخر ضد التواصل معه والتعايش، فمعاني التعصب ممقوته مذمومة وضدها هذه المعاني الجميلة المحمودة.

جاء في القاموس الانكليزي الجديد في تعريف التعصب، أنه مشاعر التفضيل أو عدم التفضيل تجاه شخص أو شيء ما دون سابقة للخبرة، أو لا تقوم على أساس الخبرات الفعلية. ويرى أولبورت أن أكثر تعريفات التعصب إيجازاً هو: التفكير السيء عن الآخرين دون وجود دلائل كافية. في حين يذهب حسن حنفي إلى القول بأن التعصب هو الانحياز التحزبي إلى شيء من الأشياء، فكرة أو مبدأ أو معتقد أو شخص، إما مع أو ضد، والتعصب للشيء هو مساندته ومؤازرته، والدفاع عنه، والتعصب ضد الشيء هو مقاومته.

2- التعصب الديني والمذهبي:

يشكل التعصب إحدى منابع اللاتسامح داخل المجتمع، كما تتعدد جداول هذا المنبع إلى التعصب الديني والقبلي والسياسي... وغيرها، وما ينتج عنها وما يعمق وجودها ويركز فاعليتها من مفاهيم وقيم، ولأنك أن تفكيك هذه البنى وإعادة تشكيلها بما يخدم قيم التسامح داخل المجتمع مهمة شاقة وصعبة، تتطلب خطاباً ثقافياً وفكرياً قادراً على تشكيل أجواء تساعد الأفراد على التماهي مع القيم الجديدة والتخلي عن القيم السلبية الموروثة، أي التماهي مع قيم التسامح من أجل بناء مجتمع يمكنه استيعاب التناقضات والتقاطعات الحادة بين المذاهب وحتى بين الأديان.

وإذا نظرنا إلى منطق التعصب نجده أنه قائم أساساً على تقابل متعارض، يتركز من جهة على المبالغة والإفراط في مدح الذات وتمجيدها والتفاخر بها، ويرتكز من جهة أخرى على المبالغة والإفراط في ذم الآخر ومقته والاستنقاص منه. وعلى هذا الأساس يمكن القول

أن التعصب إنما ينشأ ويتشكل في أرضية ومناخ القطيعة والانغلاق عن الآخر، وعلى خلفية البناء والتكوين الأحادي والمنقطع عن معارف الآخرين وعلومهم وإنجازاتهم، والذي يخرج ذهنيات لا ترى الحق إلا عندها وما سواها إلا في ضلال، وتصوّب نفسها دائماً وتخطئ غيرها.

والعصبية أو التعصب للجماعة غير الحب والولاء والميل الطبيعي الذي يمكن أن يتخذ درجة ذات أولوية عند الشخص تجاه جماعته، وهذا ما عبر عنه الحديث الشريف في بيان القدر المقبول من القدر غير المقبول من كل ذلك، في قوله صلى الله عليه وسلم: «ليست العصبية أن يحب المرء قومه، بل أن يرى المرء شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين». والمصداق لمفهوم قوم المرء أو جماعته يمكن أن يكون أي مما ذكر: القبيلة، الحزب، التيار، الدين أو الطائفة، أو القوم، وغيرها. والعصبية الدينية نسبة إلى الدين بمعناه الواسع أو نسبة لفرقة أو طائفة أو مذهب من فرق وطوائف ومذاهب هذا أو ذاك الدين، تعتبر واحدة من أخطر أنواع العصبيات، لأن أصحابها يضيفون على عصبياتهم القداسة وصفة الإطلاق وإلهية المصدر والعصمة ودعوى احتكارها وتمتلاك الحق، مما يبعث على رفض الآخر ويؤسس لثقافة كراهة الآخر، والتي تؤول إلى محاولة إقصائه أو استئصاله. وهذا يعني الاحتراب والاقتتال الذي هو من أشد ما عانت من تبعاته الشعوب على مدى عصور طويلة من تاريخ البشرية.

كما بينت الشريعة الإسلامية ما يؤدي إليه التعصب من همجية وعنف وهو ما يتجلى من قوله صلى الله عليه وسلم: «حبلُ الشيء يعمي ويصم» رواه أبو داود. ولذلك عمل الإسلام على علاج هذه الظاهرة، وأمر المسلم بالوقوف مع الحق أينما كان حتى يسود المجتمع المسلم الوثام والعدل والإحسان.

3- أسباب التعصب:

1. الانغلاق وضيق الأفق:

نجد كثيراً من الطوائف والجماعات منغلقة على ذاتها لا تسمع إلا لنفسها، وتمنع أتباعها من الاستماع لغيرها. وكثير من الأفكار المتطرفة والمتعصبة تنشأ في الأوكار السرية وسراديب الظلام في أجواء مغلقة تعلّم الإرهاب ورفض الآخر والعنف الموجه وتكفير المخالف. فالتعصب يغلق على أصحابه منافذ المعرفة، والوصول إلى علوم الآخرين ومعارفهم، واكتساب الحكمة أنى كان مصدرها ومنبعها، فيكون لسان حالهم مخالفا لما ورد عن نبي الله عيسى . عليه السلام . في قوله: «خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق». والتعصب يجعل الإنسان على قول واحد يتحيز إليه بشدة، وينافح عنه بغلظة. الجهل والتخلف المعرفي:

فالجهل مثل دائما أرضية خصبة للتطرف والتعصب بكل ألوانه وأخطرها التعصب الديني والمذهبي، بسبب إضفاء عامل القداسة المدعاة أو المتوهمة. وهذا متأث من كون الجهل والأمية تنتج لونا من التدين فيه الكثير من ملامح السطحية والخرافة، ولا شك أن الانحراف في فهم الدين من الأسباب الرئيسية للتعصب لدى الشباب. ولقد وصف الشيخ محمد الغزالي شبابا متدينا بقوله: «رأيت ناسا تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحمايتها. يرفضون الحديث في التلفزيون مثلا، لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام. ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزل والإنكار، وهؤلاء في الحقيقة لاسلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد»². فالجهل بالآخر وعدم توسيع المدارك بمعرفته والإطلاع على ما يؤمن به، يدعو الفرد إلى التعصب ضده ورفضه. ولذلك رأى الكثيرون أن الهجوم على الإسلام اليوم ومحاربته من كثير من الشعوب الغربية هو بسبب الجهل بمبادئه وعدم معرفته على الحقيقة.

النشأة في أسرة تميز ضد اللغة أو الجنس أو القبيلة والاعتقاد أو الفكر وتغذي روح التعصب والتطرف ضد الآخر تنتج لنا أناسا متعصبين ومتحجرين ومتطرفين. والأسرة نواة المجتمع، وتأثير تنشئتها لا بد وأن يظهر في المجتمع، وقد يغلب فيكون التعصب هو الصبغة العامة له. وقد يتم هذا الدور بصورة غير مباشرة عن طريق إدراك الطفل لسلوك والديه وحديثهما عن أفراد هذه الجماعات. ويتضح من ذلك ما يحدث في واقعنا اليومي بأن الطفل الذي ينتمي إلى أسرة تعتنق مذهب ديني مختلف، تجدها تغرس في طفلها حب هذا الانتماء وكرهية بقية الانتماءات الأخرى إلى درجة الحقد والتعصب. كما أنه من شأن مناهج التربية والتعليم في جميع المستويات أن تغطي ملكة الفهم الجديد للدين وللتاريخ، بحيث لا يتعلم الفرد الجرء على نقد التاريخ ونقد المفاهيم الدينية من غير عقدة ومن غير توتر، وبكل روح للحوار وبكل ما تمليه أخلاقيات الاختلاف في الإسلام الذي جعل الاختلاف رحمة، كونه يثري الفكر، ويدرب على التعايش في واقع التنوع.

3.النظم السياسية:

ساهمت اليد السياسية في خلق نوع من التمايز الديني في المجتمع الجزائري، ولقد اتضح وتجلّى هذا التدخل السياسي في المجال الديني بعد انقسام الحركة الإسلامية إلى جمعيات وأحزاب، فعمدت كل منها التميّز عن غيرها من حيث تعاملها وتطبيقها للمبادئ والنصوص الشرعية. فكان الاختلاف في الرؤى والفهوم الدينية لكل من هذه الأحزاب غطاء على الاختلاف السياسي. وهذا كله يحيلنا إلى البدايات الأولى لظهور الفرق والمذاهب الدينية في المجتمع الإسلامي. ذلك عندما يُسَيِّس الدين ويُسَيِّس الانتماء المذهبي، وتوظف المشاعر الطائفية لتحقيق مكاسب سياسية متظاهرة بمظهر الدين ومظهر الوطنية، وعندما يستخدم البعض شعار الدفاع عن حقوق طائفته كوسيلة للكسب السياسي وتحشيد الجماهير وراءه، وكسب دعمها في الشارع وأصواتها في الصناديق. والتسييس المذهبي قد يضطر الطرف الثاني أن يواجهه بتسييس مذهبي مقابل له، فيساهم تصعيد وتيرة

منهجي التسييس المذهبي المتقابلين في تصعيد العواطف الطائفية والعواطف
الطائفية المضادة.

4- الشباب وملامح العنف المذهبي:

عرفت كثير من الشعوب قبل الإسلام وبعده التعصب الذي ينحاز فيه الإنسان
انحيازاً كاملاً إلى عنصريه مظلوماً أو ظالماً، وقد عرفه العرب في جاهليتهم، بيد
أن العصبية الجاهلية التي كانت سائدة قبل الإسلام لم تنته، بل أضيفت
لها عصبية جديدة، فالعربي إما متعصب للقبيلة والعشيرة والأسرة، وإما
متعصب للقومية واللغة، وإما متعصب للدين أو للمذهب، أو هو متعصب لتيار
أو حزب، أو لقائد قومي أو وطني. فهو لا يميز بين التمسك والالتزام، أو الإيمان
والقناعة، أو الولاء والتأييد وبين التعصب، أي تعصب لأي شيء والذي يعني
بالضرورة تعصبا ضد ما يقابله.

وبالتالي التعصب ضد الطائفة أو الطوائف الأخرى، والذي مآله كراهية الآخر،
الذي سرعان ما يتحول إلى عنف يبدأ بعنف الخطاب، ثم عنف الفعل وعن
رد الفعل، وتصاعد العنف والعنف المضاد يعني بالنتيجة الكارثة الوطنية
المسماة بالحرب الأهلية.... كما أن التعصب ذاته يحرض الإنسان على العنف،
ولولا تعصبه لما لجأ إليه، والتعصب تارة يكون ناتجاً عن العنف وأخرى يكون
مولداً له، وفي كلا الحالتين فإن عدم اللجوء للعنف سيحول دون التعصب بأي
شكل كان. وما زالت تولد التعصب بأنواعه وأيضاً القيم الناتجة عنه، يعمق
صفة العنف، ويغري الإنسان لفرض آرائه والتعصب لها.

فللتعصب الديني علاقة وثيقة في كثير من الأحيان بباقي أشكال التعصب
الأخرى من طائفية وسياسية وغيرها، ومن هنا نحتاج إلى إعادة صياغة
ثقافتنا الدينية التي صاغها إسلام السلطة عبر قرون من الزمن، من أجل
تحرير الثقافة الدينية الإسلامية بشكل خاص من مفردات التكفير وكرهه
الأخرى واحتكار الحق والشرعية والمسلمات النهائيات غير القابلة للمراجعة
والمبالغة في تقديس ما هو ليس بمقدس، أو اعتبار ما هو مقدس نسبي

مقدسا مطلقا، وثقافة الفئة الناجية، والخلط بين الحقيقة المطلقة في عالم التجريد والحقيقة النسبية في عالم الفهم والتأويل الإنسانيين. والخوف من نقد الفكرونقد التاريخ ومن هنا كانت الطائفية ذات المنطلق ديني، وهي تلك التي تنطلق من فهم متعصب للدين، يضيف القداسة بالمطلق على كل ما تعتقده الجماعة التي ينتمي إليها المرء ونزعها كليا عن الجماعة المغايرة. ويتجذر هذا النوع من الطائفية، عندما تسود روح الغلبة بدلا من روح التعايش والالتقاء على المساحات المشتركة، وروح الأنانية الجماعية بدلا من روح الانتماء إلى الجماعة الأكبر، أي الانتماء إلى الوطن، وإلى الإنسانية.

وقد عرف المسجد في الجزائر عموما خلافات بين العناصر المشكلة للحركة حول طرق وممارسة الشعائر التطبيقية بين رؤى إخوانية ودمجية محلية وسلفية انتقائية لمواقف السلف حسب سلسلة منقطعة الحلقات تاريخيا، متخذة في الجسم اللفظي والجسدي وسيلة. واستطاعت أن تكون في بعض الأحيان سيدة الموقف في توظيف عملية بناء المساجد.³

ولا شك أن الشباب أينما كانوا فهم أكثر الفئات تأثرا بهذه الظروف، مشتركون في الخصائص ومميزات التي تحدد هويتهم كشباب، إلا أن هذا لا يعني أن الانتماء الثقافي والحضاري لهؤلاء لا يتدخل في تكوينهم وتشكيل تصوراتهم وتوجهاتهم. والشباب العربي اليوم أكثر من ما مضى يعيش مرحلة تناقض بين نوعين من القيم والمفاهيم، تلك القيم التقليدية والدينية التي ورثها من الثقافة القائمة والمفاهيم الجديدة التي دعمها التطور العلمي التكنولوجي مما يعمل على زيادة الصراع بين الأصالة والمعاصرة.⁴ فينتج عن ذلك بروز سلوكيات وممارسات اجتماعية تتسم بالتعصب والتمييز ضد كل من يختلف مع اتجاهه المتشدد دون وجود أية حماية قانونية. كما ينتج عن ذلك حالة التعبئة والتحريض المستمر للانتقاص من الآخر المختلف مذهبيا والسعي إلى إقصائه، شعور بالانتصار والقوة لدى الاتجاهات المتشددة وتوظيف سلبى لتوجهات أبناء المجتمع الواحد ضد بعضهم البعض. في

حين نجد النصوص الدينية التأسيسية تدعو إلى نبذ العنف والأخذ بالرفق واللين. فقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (ليس منا من دعا إلى عصبية) رواه أبو داود، ووصف العصبية الجاهلية منفراً منها قائلاً: (دعوها فإنها منتنة) رواه مسلم.

ومن المعلوم أن «أي حركة دينية في مرحلة نشأتها تحتاج لتكريس أماكنها، مبانيها، طقوسها، أعرافها، وأنماط أزيائها، لتوفير هوية مميزة للجماعة الجديدة مختلفة على نحو جلي عن كل ما حولها، وبصفة خاصة عن أولئك الذين يقيمون في المكان نفسه ويستخدمون الرموز نفسها، والمصادر النصية والمفاهيم عينها»⁵.

ومن ثم تكون السلوكات والأفعال العنيفة التي تقوم بها فئة الشباب كفئة متميزة، تطرح تميزها في المجال المعتف. فإذا كان المجال الديني من أكثر المجالات حساسية لقدسيته وسمو مبادئه، فإنه يحمل هذا العنف على محمل قدسيته، فيجعل الشباب المتعصب لمعتقد ما أولفهم ما مندفع في تقديم نموذج ودرء النماذج الأخرى والعمل على تشويشها بكل الطرق والأساليب الممكّنة من الحفاظ على هويته الدينية الفردية التي تعد حسب «إريكسون» المشكلة المركزية لدى الفرد في بداية شبابه»⁶.

وباعتبار هذه الهوية الدينية إحدى أنواع الهوية التي تعتبر الاختلافات والفوارق والتشابهات الأسس والمميزات المشكلة لها كهوية متعددة أو كهوية واحدة. ومن ثم فالهوية أساساً هي حصيلة اختلاف وتنوع أولي، وتغيرها ناتج عن سيورة دائمة الاختلافات، بمعنى آخر إن الاختلافات هي أساس الهوية كهوية متجددة ومتغيرة باستمرار⁷.

والهوية عموماً ولدى الشباب خصوصاً تعاني من حالات الاستلاب التي تتعرض لها والتي تؤدي إلى اختلالها وتصدها. فالهوية تعاني حالة الاستلاب عندما تتعرض إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على إحداث تغيرات عميقة في جوهرها، ويترتب

عند حدوث هذا الاستلاب ولادة الإحساس به مما يشعر الفرد بالتغيرات
الحاصلة وإحساسه بوضعية استلابه سواء على مستوى الفرد والجماعة
والثقافة⁸.

خلاصة:

وبالرغم من هذه الالتفاتة، لا تزال أزمة التعدد المذهبي من القضايا الكبرى
التي تحتاج إلى معالجة وافية تتطلب إعادة قراءة وإعادة قراءة هذا الموضوع
بكل تجرد وموضوعية. ومع أهمية بعض المبادرات العلمية خصوصا والدينية
ودورها الإيجابي في تخفيف حدة التوتر المذهبي، فإنها لا تزال بحاجة إلى تفعيل
أكثر وتقنين أوسع بحيث تشمل الإقرار بوضوح بأن الانتماء المذهبي لا يمثل
عائقا أمام مطلب الاندماج الإنساني والوطني، واعتماد منهجية المساواة
بين جميع الأفراد على اختلاف توجهاتهم الفكرية والمذهبية، وتهيئتهم لمرحلة
الاختلاف والتعدد الديني القادمة مع موجة العولمة.

الهوامش

- (1) ابن منظور: لسان العرب، مادة عصب، (1)، ص 602 – 607.
- (2) محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 117.
- (3) عروس الزبير: « في بعض قضايا المنهج وتاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر»، مجلة نقد، العدد(1)، 1992، ص 13.
- . محمد علي محمد: الشباب العربي والتعبير الاجتماعي، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص 4.97
- (5) محمد أركون: «تحويلات المقدس»، (ت) كامل يوسف حسين، مجلة نزوى الثقافية، عمان، أكتوبر 2003، العدد 36
- (6) عبد اللطيف معاليقي: المراهقة- أزمة هوية أم أزمة حضارة-، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط(3)، 2004، ص.ص 23.25
- (7) لخممار العلمي: في الهوية والسلطة. دراسات وأبحاث في الفكر والمجتمع والسياسة، دارما بعد الحداثة، فاس، 2006، ص 8-9.
- أليكس ميكشيلي: الهوية، (ت): علي وطفة، دارالوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، 1993، ص 8.147